

المشاكل الاجتماعية وعلم النفس

بقلم الأستاذ راسف البارودي

مفتش بمديرية المعارف — بيروت

تتعدد الحياة وتكثر مشاكلها ، بنسبة متصاعدة مع تقدم الحضارة ؛ فينشأ العراك الهائل بين الفرد والمجتمع ، وتتعدد المذاهب الاجتماعية التي تعبر عن نقطة أنانية الفرد وجموحها ، وثورة المجتمعات التي تعمل للتحرر من استعباد تلك الأنانية ، وضغطها ، لإشباع نهم في النفس ، أو شهوة توسع في الرفه والزهو والاستئثار .

ولا جدال في أن الحضارة في تقدمها ، وفي اتساع آفاقها ، تكثر من حاجيات الأفراد ، وضرويات المجتمعات ، إذ يتحول ما كان كمالياً فيصبح ضرورة وحاجة ، وتزيد في تنوع هذه الضروريات والحاجيات ، من مادية وفكرية وذوقية ، بمقدار ما تظهر الحضارة بوسائلها من مكونات النفس البشرية في شعورها^(١) وميولها ، ونزعاتها وغرائزها .

ومن المسلم به أن زيادة الحاجيات ، ووفرة الضروريات والإفراط في تنوعها ، تؤدي ، حكماً ، لنزعة مادية طاغية تقضي ، رويداً رويداً ، على القيم الروحية ، التي بها تطمئن النفس ، وتتوثق الصلات من عائلية واجتماعية ووطنية وإنسانية ، بين أبناء المجتمعات .

ومتي استهتر الإنسان بالقيم الروحية ضعفت الصلات ، وانحلت الروابط ، فتهار الحضارة ، وتفقد كيانه .

هذا ما قد وقع في الماضي ، وهذا ما يحصل في الزمن الحاضر ، وما قد يتم في المستقبل ، إذالم تدارك الحضارة ، بوسائل الثقافة الصحيحة ، أمرها .

قلت ما قد يتم في المستقبل ، لأن وجدان^(٢) الإنسانية أدرك الخطر ، وهو

(١) أقصد بالشعور ما يعبر عنه في مصر بلوجدان .

(٢) أقصده ما يعبر عنه بالشعور في مصر .

بعد ممالك زمام الأمر نوعاً ، فى هذا العصر ، وقد بلغت الحضارة أوجها ، وبدأ الطغيان المادى يتحكم بالناس ، مبعداً الإنسان عن القيم الروحية ومثلها العليا .

وإدراك الخطر يبعث على التفكير بذرته ، وقد تحقق هذا عند ما بدأ العلماء يبحثون عن وسائل الإنقاذ من الانهيار . وقد وفقوا اليوم إلى الكشف عن وسائل لم تنتبه إليها الحضارات السابقة ؛ فالحضارة تحاول إنقاذ نفسها بنفسها ، لتستمر فى التقدم والانكشاف ، دون توقف أو اضطراب لتراجع أو إنقباض . وقد بدت تبشير إمكانات النجاح بنهضة الشرق العربى ، واستعداده للتعاون مع الغرب على حفظ الحضارة والسير بها قدما للوصول إلى السلام هدف الإنسان منذ القدم . . . إذ لا تسلم الحضارة إلا بهذا التعاون بين الشرق والغرب . والسلام فى خطر ما دام الشرق شرقاً والغرب غرباً وما داما لا يلتقيان .

كانت الحضارة تفتك بذاتها ، فى العصور السابقة ، بما يتولد فيها من جرائم ، فهل يقدر لها أن تنقذ نفسها بما تستطيع اكشافه ، أو ابتكاره ، من علاجات وعقاقير ؟

نلاحظ تنبهاً عظيماً شاملاً لما ينتاب المجتمعات من أمراض نفسية وأوبئة اجتماعية وانحطاط فى الخلق وضعف فى السجيا وانحراف فى الاتجاهات . وفى فؤاد (١) العلماء اليوم يوعز بها الشعور بالنهاية الحزنة المخزية ، إذا لم تتدارك الإنسانية نفسها بالعلاج . وما القنبلة الذرية وما قد تنتج معامل التدمير من أسلحة أشد فتكاً وهولاً سوى إنذار صريح بقاء أكثر عملاً مما فعله الطوفان فى قوم نوح فى القدم .

اهتدى الإنسان ، فى بدء اضمحلال الروح الإنسانية وضعف القيم الروحية فى الحضارة الحاضرة ، إلى علوم نفسية واجتماعية وحيوية لم يوفق إليها إنسان الحضارات السابقة إلا فيما قد تراءى له من أشعة أنوارها ، لتكون نواة هذه العلوم فى عصرنا هذا .

فهل للحياة مأرب فى ذاك التنبه وهذا الاهتداء ؟ وهل أوحى بهما الحياة لتظهر عجيباتها الكبرى فى تحقيق السلام ، الذى عمل ويعمل له العلماء والمصلحون والأنبياء ؟ أم أن مبادئ هذه العلوم تهباً لحضارة آتية ، تعقب هذه بعد انهيارها ، وتحقق السلام المنشود فى هذا العالم ؟

(١) أقصد به ما يعبر عنه بالشعور أو اللاوعى

الجواب عن هذه الأسئلة في عالم الغيب الآن . ولكن هناك فكرة تناقلتها العصور ، وهى فكرة انهيار الأمم بفساد أخلاقها . وهذه هى الفكرة التى أخذ بها أمير الشعراء فجعبر عنها بقوله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
فما هى هذه الأخلاق ؟ وكيف تعمل على الإفناء والتكوين ؟ وأين تستقر أصولها ؟ وما هى بواعثها ؟ وهل هناك ما يؤثر فى معالجة أدائها ؟
هذه وأمثالها هى النقاط الأساسية التى تستحق الدرس العميق ، وهذه هى المشاكل الأولى التى على حلها حلاً عملياً يتوقف مستقبل الحضارة والإنسانية .
حاولت الحضارات السابقة حل هذه القضايا ولكن بطريق الفلسفة والأدب ، وكثيراً ما كانت الفلسفة تفلسفاً والأدب تأديباً ، فلم يكن منها ، وفى كثير من الحالات ، سوى رصف العبارات وترديدتها ، وإيجاد التعاليل وسبكها ، والاكتفاء بالمتعضبات لبعض المناسبات . فلا غرابة إذا سيطر عليها الوهم والخيال ، واكتنفها البكاء والوعويل !

وما صلح منها لم يكن له فى نفوس الأجيال ذلك التأثير الذى توخاه الباحثون ، لأنه كان وليد الحدس الذى يثب إلى الحقائق وثباً ، دون أى تحقيق علمى صحيح .
لذلك يحاول العلم اليوم ، ولأول مرة فى التاريخ ، أن يتغلغل فى أعماق النفس البشرية ليتفهم بواعث الميول وأصل النزعات ومنشأ الغرائز فى الأفئدة ، متخذاً منها مواضيع للدراسة لا تختلف فى روحها عن دراسات سائر المظاهر الطبيعية ، وهدفه إدراك نواميسها إدراكاً صحيحاً ، عله يستطيع إخضاعها لمصلحة المجتمعات والحضارة ، كما أخضع سائر القوى الطبيعية لمصلحته ، فيوجه قوى الإنسان فى الاتجاهات التى تحل معها تلك المشاكل ، فيصلح الإنسان وتسعد الإنسانية .

وهذا ما تريده اليوم المدرسة الحديثة ، إذ تستمد وسائلها من المبادئ العلمية ، بعد أن أصبحت التربية علماً ، يخضع فى مباحثه للأسلوب العلمى وتجاريبه واختباراته ، فبدأننا نسمع بعلم النفس التجريبى والايجابى ، والتربية التجريبية ، وبالدراسات الفنية لنفسية الأطفال والفتيان والرجال فى مظاهر الحياة المختلفة والمجتمعات المتعددة ، والأعمال المتنوعة ، كالثقافة ، والصناعة ، والجندية ، والسياسية ، والإجرام وغيرها وغيرها . . .

وأصبح للدراسات النفسية مقاييس علمية واختبارات فنية ، تساعدنا على أن نفهم النفس الإنسانية فى جميع مراحلها وأحوالها ، تفهماً علمياً صحيحاً يمكننا من التأثير فى تقويتها وتوجيهها ، تأثيراً فنياً ، بعيداً كل البعد عن الحدس المجرد والعبث والتخمين ، وعن الأحكام المرتجلة ، مجاملة أو تقريبيه أو تكهنية .

فأصبح لعلوم النفس ، بهذه الاتجاهات الجديدة ، شأن كبير ، جعلها تأمل ، وبحق ، أن تحل يوماً مشاكل المجتمعات وتنظم الحياة فى العالم .
إذا تأملنا فى مشاكل الحياة وشروطها ، تأملاً واقعياً صحيحاً ، وحاولنا تحليل أسبابها لتعليلها علمياً تجريبياً ، نجد ، مثلاً ، أن كثيراً من الاضطرابات النفسية والشروط الاجتماعية تنشأ عن سوء التوجيه فى العمل الذى يختاره الشباب لكسب الحياة .

فجهل الآباء والمربين لحقيقة النوااميس المسيطرة على النفوس ، وغرور الشباب وحبهم للحصول على الرفه والنعم والمجد ، بأقل جهد ممكن ، يجعل اختيار المهنة منوطاً بما يلاحظ من نجاح القائمين بها ووفرة مواردهم ، أكثر مما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار من الأهليات والاستعدادات والإمكانات جسمياً ونفسياً وخلقياً .
فهذا يريد الوظيفة ، لأنه يخدع باعتبار الناس للموظف ، أو لأنه يعتقد أن هذا يضمن حياته ، حالا وما لا ؛ وذلك يريد أن يكون طبيباً أو مهندساً أو محامياً مثلاً ، لأنه عرف أن واحداً من هؤلاء ، أو أكثر ، قد أثروا ؛ وذلك يعمل فى أى صنعة كانت ، لأنه يريد أن يكسب خبزه وخبز عائلته ، فيختار ما تيسره له الظروف والأحوال . . . إلخ .

ولا يكون من هذا الاستهتار فى ولوج أبواب الحياة إلا ما نشاهده من وفرة عدد الذين ارتسمت أمارات الخيبة على وجوههم ، من أثر الصدمة التى عانتها نفوسهم ، لقيامهم بأعمال لم يخلقوا لها ، أو لأنهم لم يعرفوا كيف يشقون طريقهم فى الحياة ، إذ لم يهتأ لها ؛ وربما اضطرب بعضهم أن يقبل استعباد الغير واستخدامه له ليقوم بأوده . . . حالات وحالات ينقم بسببها الخائبون الفاشلون على البشرية ، ويصبحون أعداء للمجتمع ، فيبيتون له ، ويعملون على الشغب والتشويش والتهديم ، بغية الانتقام وشفاء لما فى النفوس من ألم ، فتكثر المفاسد وتتنوع الشرور ، وتنحط القيم الروحية والخلقية ، ويسود مبدأ الغاية تبرر الوساطة ، بنسبة عدد الياستين وكثرة العاطلين الفاشلين .

والأغرب من ذلك ، أنك قد تجد بين هؤلاء المفسدين للمجتمعات أناساً ساعدتهم الظروف على شيء من النجاح ، وربما على كثير منه ، بل وعلى تمامه ، وتراهم مع ذلك شاكين ناقلين ، لأن عمل كل منهم لم يملأ قلبه ، ولا يتفق مع ميوله . إذ لا يكفي أن يؤمن لنا العمل مالا أو واجهة لنحصل على السعادة به ، بل يجب أن يملأ فراغ قلوبنا وتلافيف أدمغتنا ، لأنه العمل الذى نحب ، لا العمل الذى أُلحَّتْنا إليه الصدف ، أو الحاجة ، أو الغرور ، أو ضغط الأهل والآباء ! ... وما نقوله عن الشرور الناشئة عن سوء التوجيه المهني ، يصدق على ما نراه في التوجيه الاجتماعي من انحراف في الاتجاهات بسبب الدجل والتضليل والنفاق تحت ستار الدين والوطنية والإنسانية وما إليها . وما أكثر كلمات الحق التي يراد بها الباطل ! ...

الرجل
التضليل
النفاق

فهذه الاضطرابات النفسية والاجتماعية التي تهدد سلام العالم ، هي أشبه شيء بأعراض المستيريا ، وقد أثبت علم النفس التحليل أن التوصل لمعرفة أسبابها الخفية الحقيقية يكفي لإزالتها .

وهكذا يحاول علم النفس اليوم الوصول لمعرفة الأسباب الخفية ، الكامنة في الأفئدة ، لجميع تلك الاضطرابات آملاً أن تزول بظهور تلك الأسباب بصورة جلية يدركها كل إنسان ، فتتبر معرفته لها سبيل السير فتستقيم اتجاهاته . ولعل هذه تكون أعظم خدمة يقدمها العلم للحضارة .

وما زلنا نقوم ، في نهضتنا هذه ، بدعوة علماء النفس في البلاد العربية للقيام متعاونين على دراسة نفسية الأفراد والشعوب عندنا دراسة علمية تتفق مع مبادئ العلوم الحديثة وقواعدها . لأن لكل أمة نفسياتها ، ولكل فرد مميزات الروحانية ، فلا جرم أنه وجب أن نقوم نحن بهذه الدراسات لأننا نشعر في بلادنا بما لا يشعر به غيرنا ، وندرك من دقائق أحوالنا ما لا يدركه الأجنبي عنا ، مهما بلغ علمه وخلاصه وتجرده . نستفيد من القواعد العلمية العامة ، ومن المبادئ المقررة ، وقد ينفعنا استشارة علماء الغرب ومساعدتهم لنا ، ولكن لن نبليغ النتيجة إلا إذا عملنا نحن متعاونين تعاوناً علمياً صحيحاً .

بذلك نتقدم بشعوب البلاد العربية فتسير في موكب الحضارة عاملة مع من سبقها في الغرب على إيجاد عالم أفضل ، تزول فيه مظالم الشعوب للشعوب ، وتعدى الأفراد على الأفراد ؛ لأن التوجيه المقصود في الدراسات النفسية هو الوصول

إلى الانسجام والاتساق والاتزان في التفكير والشعور والنزوع ، ومتى تم ذلك استقر
العالم واطمأنت النفوس ، إذ تحل المشاكل المعقدة ، وتتوثق روابط التعاون
بين الأمم .

واصف البارودي